المقالة الثانية

في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر

الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيرا والكبير صغيرا، ويرد الحسن في زي القبيح، ويجلو القبيح في صورة الحسن. ويثير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ في العالم الأمور العظام كما روي.

الحكاية الأولى

سئل أحمد بن عبد الله الخجستاني[1]: كنت رجلا مكاريا فكيف نلت أمارة خراسان؟ قال: كنت في خجستان من بادغيس أقرأ يوما ديوان حنظلة البادغيسي فبلغت هذين البيتين[2]:

إذا كانت العظمة بين فكي الأسد فخاطر وخذها من بين فكيه[1]

فإما أن تنال العظمة والعز والنعمة والجاه، وإما أن تلق، كالرجال، الموت وجها لوجه.

(١) مهتري كر بكام شير در استشو خطر كن زكام شير بجوى
يا بزرك وعز ونعمت وجاهيا جو مدانت مرك روياروى

فطمحت نفسي فما استطاعت أن ترضى بالحال التي كنت فيها. فبعت الحمر واشتريت فرسا، ورحلت عن وطني ولحقت بعلي بن الليث أخي يعقوب بن الليث وعمرو بن الليث. وكان بازي دولة الصفاريين يطير في ذروة أوج عليين، وكان على الأخ الأصغر وكان ليعقوب وعمرو عليه إقبال عظيم. ولما ذهب يعقوب من خراسان إلى غزنة أرجعني علي بن الليث من رباط سنكين، ووجهني إلى خراسان لشحنة الإقطاعات وكنت جمعت من ذلك الجيش على الطريق مائة فارس، وكان لي عشرون فارسا من قبل.

وكان من إقطاعات علي بن الليث كروخ هراة[٣]، وخواف نيسابور. ولما بلغت كروخ أظهرت منشور التولية وما حصلتُه فرقتُه على العسكر. فصار فرساني ثلاثمائة. ولما بلغت خواف[٤] وعرضت المنشور لم يقبل رؤساؤها وقالوا: لا نحتاج إلى شحنة بأكثر من عشرة رجال. فاجتمع رأيي على أن أخلع طاعة الصفاريين فأغرت على خواف وسرت منها إلى قرية بُشت[٥] ثم إلى بيهق[٦]. واجتمع علي ألفا فارس فتوجهت تلقاء نيسابور واستوليت عليها. فارتفع شأني ومازال يرتفع حتى استخلصت لنفسي خراسان كلها.

وأصل هذا كله هذان البيتان من الشعر.

ويقول السلامي[٧] في تاريخه: إنه بلغ من أمر أحمد بن عبد الله أنه وهب في ليلة واحدة بنيسابور ثلاثمائة ألف دينار وخمسمائة فرس وألف ثوب. وهو اليوم في التاريخ من الملوك القاهرين. وسببُ هذا بيتان من الشعر. وفي مثال هذا كثير بين العرب والعجم. ولكنا اقتصرنا على هذا.

فلا غنى للملك عن الشاعر المجيد يخلّد اسمه. ويبقي ذكره في الدواوين

والكتب. لأن الملك إذا نزل به القضاء لم يبق من جيشه وماله وخزائنه شيء ولكن يبقى اسمه خالدا بشعر الشعراء. يقول الشريف المجلدي الجرجاني:

ما الذي بقي من نعيم آل ساسان وآل سامان؟ إنما بقي مدائح الرودكي وأغاني باربد[١] وقصصه[٢].

وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خلدت بشعر جماعة لهم نظم رائع وشعر شائع. كما بقيت أسامي آل سامان بالأستاذ أبي عبد الله جعفر بن محمد الرودكي، وأبي العباس الربنجني، وأبي المثل البخاري، وأبي إسحاق الجوبياري، وأبي الحسن الأغجي، والطحاوي، والخبازي النيسابوري، وأبي الحسن الكسائي.

وأما أسامي ملوك آل ناصر الدين[٣] فقد بقيت بأمثال العنصري والعسجدي والفرخي والبهرامي والزينتي وبزر جمهر القايني والمنشوري والمنوجهري والمسعودي والقصارامي وأبي حنيفة الأسكاف والراشدي وأبي الفرج الروني ومسعود بن سعد بن سلمان، ومحمد الناصر والشاه بروجا، وأحمد بن خلف وعثمان المختاري ومدود السنائي.

وأما أسامي آل خاقان فقد بقيت باللؤلؤي والكلابي والنجيبي الفرغاني وعمعق البخاري والرشيدي السمرقندي ونجار الساغرجي وعلي البانيدي وابن درغوش وعلي السبهري والجوهري والسغدي وابن تيشه وعلي الشطرنجي.

---

(١) المغني المشهور الذي ظهر في بلاط كسرى برويز.

(٢) أز آن جندان نعيم اين جهانيكه مانداز آل ساسان وآل سامان
ثناي رودكي ما ندست ومدحتنواي باربد ماندست ودستان

(٣) يعني آل سبكتكين.

. وأما أسامي آل بويه فقد بقيت بالأستاذ المنطقي والكياغضائري وبندار.

وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بفرخي الجرجاني ولامعي الدهستاني وجعفر الهمداني ودرفيروز الفخري وبرهاني والأمير معزي وأبي المعالي الرازي وعميد الكمالي وشهابي.

وأما أسامي ملوك طبرستان فبقيت بقَمَري الجرجاني ورافعي النيسابوري وكفائي الكنجي وكوسه الفالي وابن كله.

وأسامي ملوك الغور آل شِنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي القاسم الرفيعي وأبي بكر الجوهري وأقل العباد نظامي العروضي وعلي الصوفي.

ودواوين هذه الجماعة ناطقة بالكمال والجمال والعُدة والعِدّة، والعدل والبذل، والأصل والفضل، والرأي والتدبير والتأييد والتأثير لهؤلاء الملوك الماضين والسادة الغابرين نور الله مضاجعهم ووسع عليهم مواضعهم.

كم عظيم، نعموا بنعم الملوك، وأفاضوا الهبات، وأعطوا هؤلاء الشعراء المفلقين واليوم عفت منهم الآثار، ولم يبق من خدمهم وحشمتهم ديار. وكم بنوا من جواسق مزخرفة وأنشئوا من حدائق مزدهرة، وقد سويت اليوم بها الأرض، وصارت قفارًا يبابا. يقول المصنف:

كم بنى محمود من قصور تطاول القمر علوا

لا ترى منها لبنة واحدة وإنما بقي مديح العنصري[1]

---

(١) با كاخا كه محمودش بنا كردكه از رفعت همي بامه مرا كرد
نبيني زآن همه يك خشت بربايمديح عنصري ما نسدت برجاى

وملك العالم علاء الدنيا والدين[٨] أبو علي الحسين بن الحسين اختيار أمير المؤمنين أطال الله عمره ونصر رايته توجه إلى غزنة ليثأر لهذين الأميرين الشهيد شهريار والملك حميد، وفر أمامه سلطان بهرامشاه، فحمله الحزن على هذين الشهيدين، وكان الغزنويون استخفوا بهما وسفهوا عليهما، على أن يأمر بنهب غزنة، وأخرب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم واشترى مدائحهم بالذهب، وخبأها في الخزائن ولم يجرؤ أحد في هذا المعسكر أو هذه المدينة أن يسمى أحدهم سلطانا على حين كان الملك نفسه يقرأ في الشاهنامة ما قال أبو القاسم الفردوسي:

أول ما ينطق به الطفل الرضيع في مهده «محمود».

تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل.

مَلك العالم «محمود» ذو العزة القعساء الذي جمع بين الذئب والحمل على مورد الماء[١].

وأرباب العقول يعلمون أنه لم تبق هناك حشمة محمود، ولكن حرمة الفردوسي ونظمه. ولو علم محمود ما ترك هذا الرجل الحر محروما آيسا.

---

(١) جو كودك لب از شير مر بشستزكهواره محمود كويد نخست
بتن زنده بيل وبجان جبرئيلبكف ابر بهمن بدل رود نيل
جهاندار محمود شاه بزركبآبخشور آرد همي ميش وكرك

فصل

في صفة الشاعر وشعره

ينبغي أن يكون الشاعر سليم الفطرة، عظيم الفكرة، صحيح الطبع، جيد الروية، رقيق النظر، متنوعا في أنواع العلوم، آخذا بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم.

وينبغي أن يكون الشاعر منطقيا في مجلس المحاورة، طلق الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطورا، وعلى ألسنة الأحرار مذكورا. يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن. وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا القصد ما لم يبق مسطورا مقروءا.

وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره، ومات قبل قائله وكيف يخلّد غيره إن لم يخلد نفسه.

ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنفوان الشباب وريق العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين، ويديم القراءة في دواوين الأئمة ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول ودقائق الكلام حتى يترسم في طبعه صور الشعر وطرائقه، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائضه فيرتقي قوله، ويعلو طبعه.

فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر وانقاد له الكلام عمد إلى علم الشعر وقرأ العروض، وألمّ بتصانيف الأستاذ أبي الحسن السرخسي البهرامي مثل غاية

العروضين وكنز القافية، وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسراقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها، ليكون جديرا بالأستاذية ويظهر اسمه على صحيفة الزمان مع أسماء الأساتذة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم، حتى يستطيع أن يوفي الممدوح حق نعمه، بتخليد اسمه.

وعلى السلطان أن يربي مثل هذا الشاعر ليتهيأ لخدمته، ويذيع اسمه في مدائحه.

فإن لم يبلغ الشاعر هذه الدرجة لم يجدر بالالتفات إليه، وإضاعة المال لديه لا سيما إذا كان شيخا.

وقد تأملت في هذا الباب فلم أجد في العالم كله أسوأ من الشاعر الهرم، ولا أضيع من المال الذي يهدى إليه.

وأما الشاب المستقيم الطبع فإن كان شعره رديئا فهو مرجو أن يكون حسنا. ويجب في شرعة المروءة تربيته ويُفترض تعهده، ويلزم تفقده.

وليس أحسن في صحبة الملوك من حسن البديهة، فإن بالبديهة ينبسط السلطان، ويزهو مجلسه، ويبلغ الشاعر مقصوده.

ولم ينل أحد ما ناله الرودكي من آل سامان بالبديهة والارتجال.

الحكاية الثانية

حكي أن نصر بن أحمد -الذي كان واسطة عقد آل سامان، وبلغت دولتهم في أيامه أوجها، واستكملت أسباب التمتع، ووسائل العلو، من خزائن مملوءة؛

وعسكر جرار، وعبيد مطيعين- كان يشتو بدار الملك بخارى، ويصيف في سمرقند أو بمدينة من مدائن خراسان.

ووقع الاختيار على بادغيس من أعمال هراة في ربيع إحدي السنين. وبادغيس أطيب مراعي خراسان والعراق، فيها زهاء ألف قناة فيها الماء والمرعى، في كل واحدة كفاية جيش.

فلما رغت الدواب واكتنزت واشتدت، وصلحت للميدان والحرب، توجه نصر بن أحمد تلقاء هراة ونزل في مرغ سبيد على أبوابها، وضُرب المخيم هناك، وكان الوقت ربيعا وقد هبت الشمال، ونضجت فواكه مالِن وكروخ التي لا يلقى مثلها في كثير من البلاد وإن وجدت لم تبلغ هذه الكثرة.

فاستراح الجيش، وسكن إلى هواء طيب، وماء بارد، وقوت وافر، وفاكهة كثيرة، ورياحين شتى، ونعم الجند وتمتعوا بالربيع والصيف.

ولما جاء الخريف ونضج العنب، وازدهر الشاهسفرم والحماحم والأقحوان أخذوا حقهم من نعيم الشباب، وأعطوا عنفوان الشباب نصيبه. وطال الخريف، ولم يشتد البرد، ونضج العنب شديد الحلاوة، وفي سواد هراة مائة وعشرون لونا من الأعناب كل واحد ألطف من الآخر وألذ. ومنها صنفان لا يوجدان في جهة أخرى من الربع المسكون: البرنيان والكلنجرى. رقيق القشرة، صغير البذرة، كثير الماء كأن ليس فيه أجزاء أرضية، ويبلغ العنقود من الكلنجرى خمسة أمنان والحبة خمسة دراهم، أسود كالقار، وحلو كالسكر يسهل الإكثار من أكله لما فيه من مائية.

وكل أنوع الفواكه الأخرى جيد.

فلما رأى الأمير نصر بن أحمد الخريف وثمراته أعجبه جدا. وأخذ النرجس يزهر؛ وأُلقي الكشمش في مالن واستخرجوا المنقى[١] وعلقت العناقيد، وملئوا بها الخزائن. وانتقل الأمير والجند إلى قريتي غوره ودرواز فرأوا دورا كل واحدة كالجنة العليا، ولكل منها حديقة وبستان أمامها، في مهب الشمال، فأمضوا الشتاء هناك، وأخذ النارنج يُجلب من جهات سجستان والترنج من نواحي مازندران. فقضوا شتاء طيبا جدا.

فلما جاء الربيع أرسلت الخيل إلى بادغيس، وضرب المعسكر في مالِن بين نهرين.

فلما دخل الصيف نضجت الفواكه. فقال الأمير نصر بن أحمد: أين نذهب في الصيف؟ لا مقام أطيب مما هنا، نرحل في الخريف. ولما دخل الخريف قال: نتمتع بخريف هراة ونرحل. وهكذا أخر الرحيل من فصل إلى فصل (أحال فصلا إلى فصل) حتى إني على هذا أربع سنين، إذ كانت دولة السامانيين في عنفوانها، والمملكة عامرة والملك بغير منازع، والجند مطيع، والوقت مساعد، والبخت موافق. ولكن مع هذا كله مل الجند، واشتاقوا إلى ديارهم. ورأوا الملك ساكنا إلى المقام، قد تمكن هوى هراة من رأسه، وعشق هراة في قلبه، يشبهها في حديثه بجنة عدن، بل يفضلها عليها، ويراها أجمل من ربيع الصين، فعلموا أنه يريد أن يمضي الصيف بها.

فتوجه قادة الجند، وأعيان المملكة إلى الأستاذ أبي عبد الله الرودكي. ولم يكن في ندماء السلطان أعظم جاها منه ولا أنفذ قولا، قالوا: نهدي إليك خمسة آلاف دينار إذا وضعت لحنا يحرك السلطان من هذه الأرض. فإن قلوبنا قد أفعمها الشوق إلى أولادنا، وأرواحنا بلغت الحلقوم حنينا إلى بخارى.

---

(١) المنقى: هو الزبيب الذي أخرج بذره.

فقبل الرودكي، إذ كان قد حبس نبض الأمير، وعرف مزاجه وعلم أنه لا يؤثر فيه بالنثر فعمد إلى الشعر فنظم قصيدة ودخل على الأمير حين الصبوح، وجلس مكانه. فلما فرغ المطربون أخذ هو الرباب وشرع ينشد هذه القصيدة في نغمة العشاق:

ما يزال يهب علينا عرف جيحون[٩] وما يزال يهب علينا عرف الحبيب

ثم انتقل إلى نغمة أهدأ وأنشد:

إن رمل جيحون (آموى) وطريقه الوعر لا يزال تحت أقدامي كالحرير ولا يزال ماؤه، من فرط شوقه لوجه الحبيب، يعلو حتى يبلغ وسط حصاننا. فلقصد بخارى ولتطل حياتها، وليحيا الأمير ولا زال سعيدا.

إن الأمير القمر وبخارى السماء والقمر لا يزال يرنو للسماء

إن الأمير السرو وبخارى البستان والسرو لا يزال متجها نحو البستان[١]

فلما بلغ الرودكي هذا البيت بلغ تأثر الأمير أن نزل عن التخت وأسرع غير منتعل فركب فرس التوبة وتوجّه شطر بخارى حتى حمل وراءه الموزج والغاشية[٢] فرسخين إلى بروته. وهناك لبسهما. ولم يعرج على مكان حتى بخارى.

---

(١) بوي جوي مولیان آید همیوي یار مهربان آید همی
ریك آموي ودرشتي راه أوزیر بایم برنیان آید همی
آب جیحون از نشاط روي دوستخنك مارا تامیان آید همی
میر ماهست وبخاري آسمانماه سوي آسمان آید همی
میر سرواست وبخاري بوستانسرو سوي بوستان آید همی

(٢) جلد رقيق مزين يوضع فوق الخف.

وضاعف الجند للرودكي خمسة الآلاف دينار.

وسمعت في سمرقند سنة أربع وخمسمائة[١] من الدهقان أبي رجاء أحمد بن عبد الصمد العبادي قال: حدث جدي أبو رجاء أن الرودكي لما رجع إلى سمرقند هذه المرة كانت أمتعته محمولة على أربعمائة جمل.

والحق أن هذا الرجل العظيم كان جديرا بهذا فإن أحدا لم يعارض هذه القصيدة حتى اليوم. ولم الشعراء في طاقتهم الخروج من هذه المضايق.

وممن عرفوا بين العجم بعذوبة القول ولطف الطبع أمير الشعراء المعزي الذي بلغ شعره الغاية في الطلاوة والنضارة، والنهاية في العذوبة والسلاسة. وقد سأله زين الملك أبو سعد هندو بن محمد بن هندو الأصفهاني[١٠] أن يعارض هذه القصيدة. قال: لا أقدر. فألح عليه فنظم أبياتا منها هذا البيت:

يجيء الآن رستم من ما زندران ويجي الآن زين الملك من إصفهان[٢]

وكل عاقل يعرف أي فرق بين هذا الكلام وذاك الكلام. ومن يستطيع أن يقول بهذه العذوبة التي تبدو في قوله مادحا في هذه القصيدة:

يبقى ما أفاء الشعر من الثناء والمديح ولو أصاب الفقر الخزانة[٣]

وفي هذا البيت سبعة من محاسن الصنعة: المطابقة والتضاد والمردّف وبيان المساواة والعذوبة والفصاحة والجزالة[١١].

---

(١) ١١١٠-١١١١م.

(٢) رستم ازماندزران آيد همي زين ملك أز إصفهان آيد همى .

(٣) آفرين ومدح سود آيد هميكر بكنج اندر زيان آيد همى

وكل أستاذ متبحر في علم البشعر إذا تفكر قليلا علم أني في هذه مصيب والسلام.

الحكاية الثالثة

عشق السلطان يمين الدولة محمود لأياز التركي معروف مشهور. ويقال: إنه لم يكن وسيما جدا ولكن كان أسمر الوجه مليحه رشيقا، ظريفا عاقلا رزينا، عارفا بآداب الخدمة، وكان في هذا نادرة زمانه.

وهذه الأوصاف هي التي تبعث العشق، وتؤكد المودة. وكان السلطان يمين الدولة محمود رجلا دينا تقيا. وقد جاهد نفسه كثيرا في عشق أياز فلم يخرج عن جادة الشرع ومنهج المروءة قيد خطوة.

وكان في مجلس المنادمة ليلة فلما أثر فيه الشراب، وعمل العشق، نظر إلى أياز فرأى عنبرا يضطرب على وجه قمر، ورأى سنبلا يتثنى على صفحة الشمس. تشاك الدرع وتتابع حلقات السلسلة، في كل حلقة ألف فؤاد وفي كل حلقة مائة ألف روح.

فاختطف العشق زمام الاصطبار من يده. وبرز محتسب «آمنا وصدقنا» وقام أمام السلطان يمين الدولة وقال: حذار يا محمود! لا تخلط العشق بالفسق، ولا تمزج الحق بالباطل، فإن بهذه الزلة تضطرب عليك ولاية العشق وتسقط من جنة العشق كما سقط أبوك وتقع في عناء دنيا الفسوق.

وكان سمع إقباله حديدا فسمع هذا النداء، وخشي ألا يثبت جيش صبره لجند

طرر أياز، فأخرج سكينا وقال لأياز: هيا فاقطع طرّتيك. فحياه أياز وأخذ السكين من يده وقال: من أين أقطع؟ قال: من النصف. فثنى أياز طرته وقدَّر وامتثل. ووضع طرفي طرتيه أمام محمود.

فيقال: إن هذا الامتثال صار سببا آخر للعشق. فطلب محمود ذهبا وجوهرا وأعطى أياز أكثر مما عوّده، وغلبه السكر فنام.

فلما هب عليه نسيم السحر قام فجلس على سرير الملك وتذكر ما فعل فدعا أياز ورأى طرتيه مقطوعتين. فأغار جيش الندم في قلبه واستولى خمار العربدة على رأسه. فكان ينام ويقوم. ولم يجرؤ أحد من المقربين أن يسأله ماذا به، حتى توجه الحاجب علي القريب[١٢]، وهو حاجبه الكبير، إلى العنصري وقال: ادخل إلى السلطان، وأره نفسك واحتل حتى تطيب نفسه. فامتثل العنصري أمر الحاجب الكبير ودخل على السلطان وحيّا.

رفع السلطان رأسه إليه وقال: يا عنصري كنت أفكر فيك الساعة أنت ترى ما وقع فقل في هذا المعنى قولا مناسبا.

فحياه العنصري وقال على البديهة:

لم تعيبْ قطع طرة الحبيب ولم تقعد وتقوم مهموما؟

ألا فاطر وانشط واشرب فإن زينة السرو في شذبه[١]

---

(١) كي عيب سر زلفت بت از كاستن استجه جاي بغم نشتن وخاست است

جاي طرب ونشاط ومي خواستن استكاراستن سرو زيبراستن است

فسر السلطان يمين الدولة محمود من هذين البيتين كل السرور، وأمر أن يؤتى بالجوهر فملأ فمه بالجوهر ثلاث مرات، ودعا بالمطربين، وشربوا ذلك اليوم إلى الليل على هذين البيتين. وانصرف هذا الداهية مسرورا بهذين البيتين. والسلام.

وينبغي أن يعلم أن البديهة ركن من أعلى أركان الشعر وعلى الشاعر أن يروض طبعه حتى يستطيع أن يثير المعاني بديهة فإن البديهة تخرج الفضة من خزائنها، وملاءمة الحال تطيب نفس السلطان.

هذا كله واجب مراعاةً لنفس المخدوم وطبع الممدوح، وأكثر ما أصاب الشعراء من الصلات العظيمة كان البديهية ومراعاة الحال.

الحكاية الرابعة

كان الفرخي من سجستان. وهو ابن جولوغ علام الأمير خلف بانو[١٣]. وكان جيد الطبع يحسن قرض الشعر، ويضرب على الرباب.

وكان في خدمة أحد دهاقين سجستان. وكان هذا الدهقان يعطيه كل عام من الغلة مائتي مكيال كل واحد خمسة أمنان ومائة درهم نوحي من الفضة. وكان في هذا كفايته. ولكنه تزوج امرأة من موالي خلف أيضًا فكثرت نفقاته، وزادت تبعاته. فأصابته فاقة ولم يكن في سجستان أحد يُقصد إلا الأمراء. فرفع الفرخي قصته إلى الدهقان أن قد زاد الخرج فلو زاد الدهقان كرما غلتي إلى ثلاثمائة مكيال، والفضة إلى مائة وخمسين لعل هذا يفي بحاجاتي.

فوقع الدهقان على ظهر القصة أن هذا القدر لا يُضن به عليك ولا سبيل إلى

الزيادة. فلما قرأ فرخي هذا يئس وأخذ يسأل الصادر والوارد لعله يجد في أطراف العالم وأكنافه ممدوحا يقصد إليه ليصيب خيرا عنده، حتى أخبر أن الأمير أبا المظفر الصاغاني[١٤] في صاغان يحسن إلى الشعراء، ويفيض على هذه الجماعة الصلات والجوائز الفاخرة وأنه لا ند له اليوم من ملوك العصر وأمراء الوقت في هذا الباب.

فنظم قصيدة في مدح الأمير أبي المظفر:

غادرت سيستان مع قافلة الحِلة، لابسا حلة غزلها من القلب ونسيجها من الروح[١]

وهي في الحق قصيدة حسنة أجاد فيها وصف الشعر كل الإجادة وبذ الشعراء في المدح، ثم تزود وتوجه تلقاء صاغان فبلغ الحضرة أوان الربيع وكان الأمير في الموسم[٢].

وسمعت أنه كان عنده ثمانية عشرة ألف حِجرة أصيلة وراء كل واحدة مهرها. وكان يهذب كل سنة ويَسم المِهار.

وكان العميد أسعد وكيل الأمير في الحضرة، يهيئ الأنزال ليحملها إلى الأمير. فذهب فرخي إليه وأنشده قصيدة وعرض عليه قصيدة الأمير. وكان العميد أسعد رجلا فاضلا محباً للشعراء فرأى لفرخي شعرا سلسا بيّن العذوبة، بارع الصنعة. ورأى فرخي سجزيا لا رواء له، يلبس جبة ممزقة، ويضع عمامة كبيرة، وفي رجليه نعلان غليظان جدا. وشعره في السماء السابعة.

---

(١) يا كاروان حلة برفتم ز سيستانباحله تنيده ز دل بافته زجان

(٢) في الأصل داغكاه: مكان الوسم أي وسم الحيوان بالكي. فترجمناها باسم المكان من وسم.

فلم يصدق أن هذا الشعر يلائم هذا السجزى. فقال على سبيل الامتحان: الأمير في الموسم وأنا ذاهب إليه ومستصحبك إلى الموسم وهو بقعة جميلة جدا «ترى مرجا أخضر مترامي الأكناف»[1]، وتملؤه الخيام والمصابيح كالنجوم وينبعث من كل خيمة نغمات العود، والندماء جالسون يشربون ويتمتعون. وفي ساحة الأمير نار موقدة كالجبل والمهار توسَم، والأمير آخذ القدح بيد والوهق بالأخرى. يشرب الشراب، ويهب الخيل.

فأنشي قصيدة تناسب الوقت، وصف الموسم لأستصحبك إلى الأمير.

فانصرف فرخي تلك الليلة وأنشأ قصيدة رائعة، فلما أصبح توجه بالقصيدة إلى العميد أسعد. وهي:

منذ غطى المرج وجهه بوشاح أخضر

واكتست قمم الجبال قوس قزح من حرير

تضوعت الأرض بالمسك كنافة الغزال

وتلألأ ورق الصفصاف لا يحصي كريش الببغاء

وصباح الأمس هاجت الريح نفحات الربيع

حبذا ريح الشمال ويا طيب نسيم الموسم

وكأنما الريح بطيب المسك عطرت أكمامها

---

(١) جهاني در جهاني سبزه بيني.

وتزيت حافة البستان بأجمل الدمى

وتزين «النسترن» بقلادة من لؤلؤ

والأرغوان تحلى بقرط من لعل أحمر

وعلت كأس الكميت أغسان الورود

وتدلت من شجيرات الجميز أيد ببنان

واكتسى البستان ألوانا وضياء وبلونها تحلت الأغصان

بكت السحب لآلئ قد جرت في الأرض ماء[1]

وكأن الملك العادل قد حباها بالخلع

وبلغت الأرض من السعادة ذروة

وقف الدهر حيالها فرحا بل حائرا من أمرها

وترى المرج الأخضر مترامي الأكناف كأطباق السماء

وصفوفا من خيام كالقلاع المتراصة

مثل العاشق من خمر وحب في الخباء

---

(١) جون برند نيلكون برروي بوشد مرغزاربرنيان هفت رنك اندر سر آرد كوهار خاك راجون ناف آهو مشك زايد بي قياسبيدرا جون برطوطي برك رويد بي شمار دوش صبحدم بوي بهار آورد بادحبذا باد شمال وخرما بوي بهار

وحيثما الخضرة محبوب سعيد بحبيب

وعلا صوت الرباب العذب بالخضرة مشوب

فطغى على صوت السقاة يديرون كئوس راح

ثمل العشاق من قبلات وعناق

وترنحت الحسان من دلال وعتاب

وتغنى المطرب النشوان لا يحفل بنائم من خمار

باب كسرى قد أضاء أسفل الجبل بنار

هي شمس بل لواء كسرى من ديباج أصفر

ذهب يلمع عن بعدٍ وفيه من حياة

وفرة قد لا تدانيها الفتوة والشباب

هذه مكواة خيله عود مرجان أم ياقوت

تلمس النار فتشبه حبَّ رمان نضيد[1]

وصفوف من شباب لم يذوقوا النوم من فرط النشاط

---

(١) راست بنداري كه خلعتهاي رنكين يافتندباغهاي بر نكار از داغكاه شهريار
داغكاه شهريار اكنون جنان خرم بودكاندرو از خرمي خيزه بياند روز كار
سبزه اندر سبزه بيني دون سبهر اندر سبهرخيمه اندر خيمه جون سيمين حصار اندر حصار
هركجا خيمه خفته عاشقي با دوست مستهركجا سبزه است شادان ياري از ديداريار

وصفوف من خيول في انتظار

هاكم كسرى السعيد على ظهر الجواد عبار البحار

قد أمسك القوس كاسفنديار

يتثنى ويتمايل مثل طرر الحسان

ولكنه كعهد الصداقة المجربة في استقامته

هو الأمير العادل أبو المظفر شاه مع حاشيته

سعيد، مجدود، موفق، قادر

كل ما يقع من صيد في أنشوطته

يكتب اسمه فوق جبينه وذراعه ووجهه

ولكنه إذ يسم الخيل يهب الهبات

يهدي الشعراء خيلا باللجام ويعطي الزوار خيلا في الحبال[1]

---

(١) ريد كان خواب ناديده مصاف اندر مصافمركبان داغ ناكرده قطار اندر قطار
خسرو فرخ سير برباءه دريا كذرباكمد اندر ميان دشت جون اسفنديار
همجو زلف نيكوان مروكيو تاب خورههمجو عهد دوستان سال خورده استوار
مير عادل بو المظفر شاه با بيوستكانشادمان وشادخوار وكامران وكامكار
هركرا اندر كمند شست بازي در فكندكشت نامش برسرين وشانه ورويش نكار
هرجه زين سو داغ كرداز سوي ديكر هديه دادشاعران را با لكام وزائرانرا با فسار

فلما سمع الرئيس أسعد هذه القصيدة تحير إذ لم يكن سمع مثلها قط. فترك أعماله كلها وأركب الفرخي وتوجه تلقاء الأمير. وبلغ الأميرَ حين الغروب وقال: «يا مولاي! أتيتك بشاعر لم يُر مثله منذ غيب الدقيقي التراب»[1].

وقصّ ما جرى. فأذن الأمير للفرخي. فلما دخل خدم[2] فمد الأمير يده، وقرب مكانه وسأله ولاطفه ووعده إحسانه.

وبعد أن دارت الكئوس مرات قام الفرخي وأنشد هذه القصيدة بصوت حزين حسن:

غادرت سجستان مع قافلة الحِلة

فلما أتمها وكان الأمير عارفا بالشعر ويقرِضه كذلك أكثر تعجبه من هذه القصيدة. فقال العميد أسعد: يا مولاي انتظر لترى خيرًا منها. فسكت الفرخي وصمت إلى أن بلغ سكر الأمير غايته. فقام وأنشد تلك القصيدة. قصيدة الموسم. فتحير الأمير والتفت إلى الفرخي في هذه الحيرة وقال:

حُشِد ألف مهر كلها ختلية غراء[3] محجلة الأربع. والأمر إليك أنت رجل سجزي وعيَّار فما استطعت أن تمسكه فأمسك فهو لك.

وكان الشراب قد غلب عليه وأثر فيه كل التأثير. فخرج ونزع عمامته من فوق رأسه وألقى بنفسه وسط القطعان. واستقبل قطيعا وأخرجها إلى جهة أخرى من الصحراء، وأجراها يمينا وشمالا وكل ناحية فلم يستطع أخذ واحد منها ثم ظهر في

---

(١) في الأصل: «منذ وضع الدقيقي وجهه في نقاب التراب». وهذا كناية عن الموت.

(٢) حيا الأمير على الطريقة المعتادة إذ ذاك.

طرف المعسكر رباط خرب فدخلت المهار هذا الرباط وكان الفرخي قد بلغ منه النصب مبلغه. فوضع عمامته تحت رأسه في دهليز الرباط وغلبه النوم من فرط السكر والتعب.

وعدت المهار فإذا هي اثنان وأربعون وأخبر الأمير الخبر فضحك كثيرا وتعجب وقال: رجل مجدود سيعلو أمره، احرسوه والمهار وأيقظوني حين يستيقظ. فامتثلوا أمر الملك.

وقام الفرخي مطلع شمس الغد وكان الأمير قد قام. فصلى وجلس للناس، ولاطف الفرخي وسلمت إليه كل تلك المهار وأمر له بفرس مع عدة خاصة، وخيمتين وثلاثة بغال وخمس جوار وثياب للباس والفرش. وعلا أمر الفرخي في خدمته، وصار ذا أبهة تامة.

ثم ذهب إلى خدمة السلطان يمين الدولة محمود ولما رآه السلطان محمود في زينته نظر إليه بهذه العين، وبلغ من أمره أنه كان يركب خلفه عشرون غلاما بمناطق الفضة.

الحكاية الخامسة

ارتبع ملك الإسلام سنجر بن ملك شاه أطال الله بقاءه وأدام إلى المعالي ارتقاءه سنة عشر وخمسمائة[1] في برية تروق[16] في حدود طوس وأمضى هناك شهرين. ووصلت من هراة إلى هذه الحضرة على سبيل الانتجاع وكنت معدما، لا مال ولا

(١) ١١١٦-١١١٧م.

زاد، فأنشأت قصيدة، وتوجهت إلى أمير الشعراء المعزي أستعينه.

ورأى شعري واختبرني في أنواع منه، فأعجبته فأكرمني وقضى حقي.

وكنت يوما عنده أستزيد الزمان وأشكو، فعطف علي وقال: قد تعبتَ في هذا العلم، وبلغت غايته ولا بد له من أثر، وكذلك كانت حالي، وما ضاع شعر جيد قط، وسيكون لك في هذه الصناعة حظ؛ فشعرك سلس عذب، آخذ في الترقي، فاصبر وسترى لهذا العلم حسنات وإن جار عليك الزمان أول الأمر فسيواتيك من بعد.

كان أبي أمير الشعراء البرهاني رحمه الله قد انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء في قزوين أول دولة ملكشاه، وأوصى بي السلطان بهذا البيت من تلك القطعة الرائعة:

لقد انتهيت وإن ابني لخلف صدق لي استودعه الله والملك[1]

فحوّل إلى ما كان لأبي من وظيفة وصلات[17]، وأصبحت شاعر ملكشاه، وقضيت في خدمة سلطان الزمان سنة لم أستطع رؤيته خلالها إلا من بعيد، ولم أحصل من الصلات والوظيفة على مَنٍّ أو درهم واحد. وزاد نفقاتي، وأثقل القرض كاهلي، وتعقد الأمر. وكان الوزير الكبير نظام الملك رحمه الله لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يحسنه، وما عُني بأحد غير الأئمة والمتصوفة.

وفي يوم كان غداته غرة رمضان، ولم يكن لدي لنفقة هذا الشهر والعيد دانق، ذهبت وأنا ضيق الصدر إلى علاء الدولة الأمير علي فرامرز[18]، وهو أمير محب للشعر ونديم السلطان الخاص وصهره. كان ذا مهابة، جريئا، وهو يشغل منصبا رفيعا في تلك الدولة، وكان يرعاني. فقلت: أطال الله عمر الأمير ليس كل عمل قدر

---

(١) من رفتم وفرزند من آمد خلف صدقاورا بخدا وبخداوند سبردم

عليه الأب يقدر عليه الابن، وليس ما تيسر للوالد ميسرا للابن. لقد كان والدي رجلا جلْدا شهما، وكان موسعًا عليه في الرزق من هذه الصناعة -الشعر- وكان سيد العالم السلطان الشهيد ألب أرسلان يقدّره، فما كان منه لا يتأتى إليّ، فإن لي حياءً يمنع، وقد زاده طبع دقيق. وقد خدمت سنة، واستدنت ألف دينار وما مُنحت دانقًا. وأود الإذن لي بالعودة إلى نيسابور فأقضي ما علي من دين وأنفق مما تبقى، وأدعو للدولة القاهرة.

فقال الأمير علي: لقد صدقت، وقد قصرنا جميعا ولن نفعل بعد ذلك سيخرج السلطان في صلاة المغرب لرؤية الهلال فعليك أن تكون حاضرا هناك حتى نرى ما يجود به الحظ. ثم أمر لي في الحال بمائة دينار لنفقات شهر رمضان، فأحضرا لي على الفور كيسا به مائة دينار، فعدت مسرورا وأوصيت بشراء ما يلزم لهذا الشهر. وذهبت إلى باب مخيم السلطان وقت صلاة العصر، فكان من الصدف أن يصل علاء الدولة في هذا الوقت نفسه فحييته. فقال: حسنا فعلت وقد أتيت في الوقت المناسب، ثم نزل ودخل عند السلطان. وخرج السلطان من مخيمه ساعة الغروب وفي يده القوس، وكان علاء الدولة على يمينه. فهطعت وحييت، وقد أتم الأمير علي أفضاله عليّ. وشغلوا برؤية الهلال، وكان السلطان أل من رآه فكان سروره عظيما، فقال لي علاء الدولة: قل شيئا يا بن البرهاني في هذا الهلال الجديد فقلت هذين البيتين على الفور:

أيها القمر، إنك كحاجب الحبيب، أو أنت كقوس الملك

أو أنت كنعل الفرس من الذهب الخالص. أو كأنك القرط في أذن الفلك[1]

---

(١) اي ماه جو ابروان ياري كوئيياني جو كمان شهر ياري كوئى
نعلي زده از زرّ عياري كوئيدر كوش سبهر كو شواري كوئى

فلما أنشدت هذا الشعر استحسنه الأمير علي كثيرا، وقال السلطان: اذهب للإسطبل وخذ الحصان الذين تريد. وكنا في هذه الساعة قُرب الإسطبل. فأشار الأمير علي إلى الحصان فأحضروه وأعطوه لخدمي، وكان يقوّم بثلاثمائة دينار نيسابوري. وذهب السلطان إلى المصلى فصليت معه المغرب، ثم ذهبنا إلى المائدة. فقال الأمير علي ونحن جلوس عليها: يا بن البرهاني إنك لم تقل شيئا فيما أفاض عليك سلطان الدنيا من التشريف. قل على الفور «دو بيت». فنهضت وأديت التحية وقلت هذا الدو بيت كما اتفق:

حين رأى السلطان النار مشتعلة في خاطري

رفعني من الأرض فوق القمر

وحين سمع مني لحنا عذبا كالماء

وهبني حصانا من خيله يسابق الريح[1]

فلما أنشدت هذه الدو بيت استحسنه علاء الدولة كثيرا، ووهبني السلطان من أجل استحسانه إياه ألف دينار، ثم قال علاء الدولة: إن وظيفته وصلاته لم تصله وسألازم الوزير نظام الملك غدا حتى يأمر بصرف وظيفته من الخزانة ويجعل صلته على إصفهان. فقال السلطان: «لعلك فاعل هذا فليس للآخرين هذه الحسبة، ثم نادوه بلقبي». وكان لقب السلطان معز الدنيا والدين، فناداني الأمير علي بالأستاذ معزى، فقال السلطان: بل الأمير معزى. وقد كان من أمر هذا العظيم الرفيع النسب أن أمر لي في اليوم التالي وقت صلاة الظهر بألف دينار وبوظيفة ألف ومائتي دينار

---

(١) جون آتش خاطر مرا شاه بديداز خاك مرا بر زيرماه كشيد

جون آب يكي ترانه از من بشنيدجون باد يكي مركب خاصم بخشيد

كما أمر بإعطائي ألف مَنٍّ غلةً.

ولما مضى شهر رمضان دعاني إلى الحضرة وجعلني من ندماء السلطان وبدأ حظي في الترقي. وقد استمر هذا الأمير يُعنى بي وإن كل ما أنا فيه اليوم هو من رعايته. الله تبارك وتعالى ينير قبره بأنوار رحمته بمنه وفضله.

الحكاية السادسة

كان آل سلجوق جميعا يحبون الشعر. ولكن لم يكن منهم من أحبه أكثر من طغانشاه بن ألب أرسلان[١٩]. وقد كانت محاوراته ومجالسه كلها مع الشعراء، وكذلك كان ندماؤه جميعا من الشعراء، مثل الأمير أبي عبد الله القرشي وأبي بكر الأزرقي[٢٠] وأبي منصور بن يوسف وشجاعي النسوي وأحمد البديهي وحقيقي ونسيمي، وهؤلاء كانوا في خدمته. والغادون والرائحون كثيرون، كلهم مرزوق منه ومحظوظ.

وكان الأمير يلعب ذات يوم النرد مع البديهي، وكان اللعب على عشرة آلاف وقد أوشك على الانتهاء. كان عند الأمير حجران في بيت «الشيش» ولأحمد البديهي حجران في بيت «اليك» واللعب للأمير، فاحتاط كثيرا ثم رمى ليأتي «بالدش»، فجاء الزهر «هبيك» فغضب غضبا شديدا وخرج عن طبعه، وحق له هذا. وقد اشتد به الغضب فكان يمسك السيف كل لحظة، وارتعد الندماء كالورق على الشجر. فقد كان أميرا وحدَثا ومقمورا محرجًا.

فنهض أبو بكر الأزرقي واقترب من المطربين وأنشد هذا الدو بيت:

إذا طلب الملك «دوش» يأتي «الهبيك»

حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل

فإن هذه «الضربة» التي ضربها هي مقصد الملك

جاءت إلى الخدمة ساجدة على الأرض[١]

حينما كنت في هراة سنة ٥٠٩[٢] حكى لي أبو منصور بن يوسف أن الأمير طغانشاه قد سُرّ بهذا الدو بيت وعاوده النشاط فقبّل عيني الأزرقي. ثم طلب الذهب، خمسمائة دينار، وأخذ يملأ به فمه فلم يبق منه غير قطعة واحدة. وهكذا عاد إليه مرحه فوهب. وسبب هذا كله دو بيت واحد، رحم الله تبارك وتعالى الاثنين بمنه وكرمه.

الحكاية السابعة

رفع رجل ذو غرض في مشهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة[٢١][٣] قصة إلى السلطان إبراهيم بأن ابنه الأمير سيف الدولة محمود قد اعتزم على الذهاب إلى

---

(١) يقصد أن «الدش» قد جاء كما أراد الأمير إلا أنه احتراما للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر «الهبيك».

كرشاه دوشش خواست دويك زخم افتادتاظن نبري كه كعبتين داد نداد

آن زخم كه كرد رأي شاهنشه ياددر خدمت شاه روي برخاك نهاد

(٢) ١١١٥م.

(٣) ١٠٧٩-١٠٨٠م.

العراق والالتحاق بخدمة ملكشاه؛ فأغار هذا صدر السلطان، فكان أن أمر بالقبض عليه فجأة وقيده، وأرسله إلى القلعة، كما قُيِّد ندماؤه وأُرسلوا إلى القلاع. وكان من هؤلاء مسعود بن سعد بن سلمان الذي أُرسل إلى قلعة ناي في وجيرستان[٢٢]. فأرسل هذا إلى السلطان «دو بيت» قال فيه:

أيها الملك، قد كان ينبغي أن يقع ملكشاه في أسرك حتى يحك قيدك قدميه

أما من أنجبه سعد بن سلمان فإنه لن يضر مُلكك ولو كان سمًّا[١].

وقد رفع على الخاص هذا الدو بيت إلى السلطان فلم يتأثر به. ويعرف أرباب العقل وأصحاب الإنصاف أي درجة بلغت حبسيات مسعود علوًا ولأي مرتبة سمت فصاحة، وأنه ليحدث أحيانا وأنا أقرأ أشعاره أن يقف شعر جسدي، كما يحدث أحيانا أن يفيض الدمع من عيني. وقد قرئت هذه الأشعار كلها على السلطان واستمع لها فلم يتأثر في أي موضع منها[٢٣]. ثم مات وترك هذا الرجل الحر في السجن. وقد دامت فترة سجنه اثنتي عشرة سنة بسبب تقربه إلى سيف الدولة، كما طال حبسه ثماني سنوات أيام السلطان مسعود بن إبراهيم بسبب تقربه إلى أبي نصر الفارسي[٢٤]. ولم يستمع إلى الكثير من القصائد الغراء والدرر النفيسة التي أبدعها طبعه الوقاد. وبعد ثماني سنوات أخرجه من السجن ثقة الملك طاهر بن علي مُشكان[٢٥].

وقد أمضى هذا الرجل الحر كل عمره، في دولتهم سجينا وبقيت هذه الوصمة لهذه الأسرة الكبيرة. وأنا حائر هنا فعلى أي وجه أحمل هذا الأمر أعلى ثبات الرأي أم

---

(١) در بندِ تو اي شاه ملكشه بايدتا بند توي باي تاجداري سايد
آن كس كه زيشت سعد سلمان أيدكر زهر شود ملك ترا نكزايد

على غفلة الطبع أم على قسوة القلب أم على الحقد. ومهما يكن فإنه ليس حسنا. ولم أر عاقلا يحمد لتلك الدولة هذا الحزم والاحتياط. وقد سمعت من سلطان العالم غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه، عند باب همدان في حربه مع الأمير شهاب الدين قُتلمش ألب غازي الذي كان زوج أخته[٢٦]، طيب الله تربتهما ورفع في الجنان رتبتهما، أن حبس الخصم علامة على الحقد لأن الأمر لا يعدو واحدا من اثنين إما أن يكون الخصم مصلحا أو مفسدا، فإذا كان مصلحا فحبسه ظلم وإذا كان مفسدا فتركه على قيد الحياة ظلم أيضًا. وفي الجملة فقد انقضى ما لقي مسعود وستبقى هذه الوصمة إلى يوم القيامة.

الحكاية الثامنة

كان مُلك الخاقانيين[٢٧] أيام السلطان خضر بن إبراهيم[٢٨] عظيم الشأن وبلغ حسن سياستهم ومهابتهم الأوج -وكان هذا السلطان عاقلا عادلا، وكان زينة الملك فيما وراء النهر، وقد سلّمت له تركستان- وكان مُستريحا تماما من ناحية خراسان، فقد توطدت بينه وبينها صلات النسب والصداقة واستقر بينهما العهد والميثاق. ومن جملة عظمة ملكه أنه كان حين يركب، يتقدم حصانه سبعمائة مجن من الذهب والفضة عدا الأسلحة الأخرى. وكان صديقا عظيما للشعراء، فكان في خدمته الأستاذ الرشيدي، والأمير عمعق ونجيبي الفرغاني ونجار الساغرجي، وعلي البانيذي وابن درغوش، وابن الأسفراييني وعلي السبهري وكانوا ينالون منه صلات ثمينة ويأخذون منه تشريفات غالية. وكان الأمير عمعق أمير الشعراء وكان له من هذه الدولة حظ كامل وثراء عظيم، من الغلمان الترك والجواري الحسان والخيل المُجلية والأدوات الذهبية والأكسية الفاخرة وغيرها كثير من الفاطق

والصامت. وكان عظيم الاحترام في مجلس الملك، فكان من الضروري أن يُلزم بخدمته الشعراء الآخرون، فطمع في أن يخدمه الأستاذ الرشيدي، كما يفعل الآخرون، ولكنه لم يفعل. فقد كان الرشيدي على صغره عالما في تلك الصناعة. وكانت ممدوحته الست زينب بينما كان جميع حرم خضرخان تحت إمرته. وكان مقربا جدا من السلطان، الذي كان يثني عليه ويقر بفضله، حتى ارتفع شأن الرشيدي وصار سيد الشعراء وأصبح للسلطان اعتقاد فيه وأجزل له الصلات. فذات يوم في غيبة الرشيدي سأل السلطان عمعق قائلا: «كيف ترى شعر عبد السيد الرشيدي؟». فقال عمعق: «شعر في غاية الجودة منقى ومنقح، ولكن يلزمه بعض الملح». ولم يمض على ذلك كثير من الوقت حتى دخل الرشيدي وأدى الخدمة وطلب الجلوس. فاستقدمه السلطان وقال له قاصدًا الإيقاع بينهما كما هي عادة السلاطين: «سألت أمير الشعراء كيف شعر الرشيدي فقال: إنه حسن ولكن بلا ملح، فعليك أن تقول بيتين في هذا المعنى» فأدى الرشيدي الخدمة ثم جاء إلى مكانه وجلس وقال هذه القطعة على البديهة:

لقد عبت شعري بأن لا ملح فيه، وقد يكون هذا جائزا

إن شعري كالسكر والشهد، فالملح لا يصلح لهما

أما شعرك فلفت وباقلاء، فالملح يلزمك أيها الخبيث[1].

فلما عرض هذا الشعر سر الملك سرورا عظيما. والعادة في ما وراء النهر، في

---

(١) شعر هاي مرا به بي نمكيعيب كرد روا بود شايد

شعر من همجو شكر وشهدستوندرين دو نمك نكو ننايد

شلغم وباقليست كفتهء تونمك أي قلتبان ترا بايد

مجالس الملك، والمجالس الأخرى أن يضعوا الذهب والفضة في الأطباق، ويسمونها سيم طاقا أو جفت. وقد وُضع في مجلس خضرخان أربعة أطباق بها الذهب الأحمر من أجل العطاء، في كل منهما مائتان وخمسون دينارا، وكان يهب منها بقبضة يده. وقد أقر بها في هذه الأطباق الأربعة للرشيدي. وأظهر له غاية الاحترام. واشتهر. لأنه كما أن الممدوح يعرف بشعر الشاعر المجيد، فكذلك يعرف الشاعر بصلة الملك القيمة، فإن هذين المعنيين متلازمان.

الحكاية التاسعة

الأستاذ أبو القاسم الفردوسي من دهاقين طوس، من قرية تسمى باز[١٩] من ناحية طبران[٣٠]، وهي قرية كبيرة تخرج ألف رجل. وكان للفردوسي شوكة عظيمة في قريته، وكان في غنى عن أمثاله بما تغله ضياعه. وكانت له بنت واحدة فكان ينظم الشاهنامة وكل أمله أن يعد جهاز هذه البنت من صلة ذلك الكتاب، فاشتغل به خمسا وعشرين سنة حتى أتمه، والحق أنه لم يترك شيئا وأنه بلغ بالكلام إلى سماء العليين وأوصله في العذوبة إلى ماء معين. وأي طبع تتهيأ له هذه القدرة ليصل بالكلام إلى الدرجة التي أوصله الفردوسي إليها في كتابه الذي كتبه زال إلى سام بن نريمان في مازندران بشأن طلب الزواج من روذبة ابنة ملك كابل:

ثم أمر بكتابة خطاب إلى سام ملؤه المديح والدعاء والسلام.

فاستفتح بذكر الله الذي أمر بالعدل وعْدَل.

ومنه إلى سام بن نيرم، رب السيف والدرع والخوذة، دعاء.

إنه صارع الخيل وقت المعركة وآكل الرخ في الموقعة.

إنه مثير الريح وقت الحرب وناثر الدم من السحاب الأسود.

إنه فضل في فضل بالشجاعة، وقد رفعت رقبته رأسه عزةً[١].

وأنا لم أر في كلام العجم مثل هذه الفصاحة وكذلك في كثير من كلام العرب ولما أتم الفردوسي الشاهنامة كان نساخه أبا علي الديلمي وكان راويه أبا دلف ووشكرحي (حسين) بن قتيبة الذي كان عامل طوس وله على الفردوسي أيادٍ، وهو يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة:

ولعلي الديلمي وأبي دلف، بين أكابر المدينة نصيب موفور[٢].

---

(١) يكي نامه فرمود نزديك سام
سرا سر درود نونويد وخرام
نخست از جان آفرين ياد كرد
كه همه داد فرمود وهم داد كرد
وزو باد بر سام نيرم درود
خداوند شمشير وكوبال وخود
جماننده جرمه هنكام كرد
جرانندهء كركس اندر نبرد
فزايندهء باد آور دكاه
فشانندهء خون ز ابر سياه
بمردي هنر در هنر ساخته
سرش از هنر كردن افراخته

(٢) في هذه الأبيات تقديم وتأخير، ونحن نذكر القطعة كلها حتى يبين المعنى:
حينما مضى علي خمس وستون سنة زدت همي ونصبي، وشقيت بتاريخ الملوك ونحس كوكبي. والكبراء والأحرار أولو العلم كتبوه جميعا مجانا وهم ينظرون إليّ من بعيد كأني كنت أجيرهم. ولم يكن حظي

ولم يكن حظي منهم إلا أحسنت لقد تحطمت قوتي تحت قولهم أحسنت.

وحسين بن قتيبة ذلك الحر الذي لم يبغ مني الكلم بغير جزاء

لم أكن اعبأ بالخراج أصله وفرعه، وكنت أتقلب في رغد ورفاهية[1].

وكان حي (حسين) بن قتيبة عامل طوس. وقد رأى من واجبه أن يضع عن الفردوسي الخراج، لا جرم أن يبقي اسمه حتى يوم القيامة، ويقرأه الملوك. ثم كتب علي الديلمي الشاهنامة في سبعة مجلدات. وأخذ الفردوسي أبا دلف وتوجه تلقاء الحضرة في غزنة، وتوسل بالرئيس الكبير أحمد بن الحسن الكاتب فقبلها. وكان السلطان محمود يعرف له أياديه، ولكن الرئيس الكبير كان له منافسون يدأبون على الإيقاع به والغض من قدره. فسأل محمود هذه الجماعة ماذا نعطي الفردوسي؟ قالوا:

منهم إلا أحسنت. لقد تحطمت قوتي تحت قوله أحسنت. زمّوا رءوس البدر العتيقة، وانقبض صدري المنور. ولكن لعلي الديلمي بين أكابر المدينة، نصيب موفور، ذلك الرجل ذو البصيرة يسر عملي وسني نجاحي. وأبو نصر الوراق كذلك نال بهذا الكتاب من الكبراء شيئا كثيرا. وحسين بن قتيبة ذلك الحر الذي لم يبغ مني الكلْم بغير جزاء، كان منه الطعام واللباس والفضة والذهب وبه تحركت يدي وقدمي، مستريحا من الخراج أصله وفرعه متقلبا في رغد ورفاهية. الشاهنامة (٢/ ٢٧٥) هامش (عزام بك).

(١) ازين نامه ز نامداران شهر
علي ديلم وبو دلف راست بهر
نيامد جز احستشان بهره ام
بكفت انرد احستشان زهره ام
حيّ قتيبه است از آزادكان
كه از من نخواهد سخن رايكان
نيم آكه از اصل وفرع خراج
همي غلطم اندر ميان دواج

خمسين ألف درهم، بل هذا كثير لأنه رجل رافضي معتزلي. وهذا البيت دليل على اعتزاله فهو يقول:

إنك لن ترى الخالق بعينيك، فلا تجهدهما[١]

وهذه الأبيات دليل على رفضه فإنه يقول:

«إن الحكيم يرى هذه الدنيا بحرا ثارت بموجه ريح عاصف، فيه سبعون سفينة قد نشرت شرعها، بينهن سفينة كالعروس، مجلوة في زينتها كعين الديك. وفيها محمد وعلي وأهل بيت النبي والوصي. فإن كنت ترجو الدار الآخرة فتبوأ مكانك عند النبي والوصي. فإن أصابك من هذا شرف فإثمه عليّ. ذلك مذهبي وطريقتي. عليه ولدت وعليه أموت. وما أنا إلا تراب قدم حيدر»[٢].

---

(١) به بينند كان آفريننده را
نبيني مرنجان دو بيننده را

(٢) خردمند كيتي جو دريا نهاد
برانكيخته موج ازو تند باد
جو هفتا كشتي درو ساخته
همه باد بانها بر آفراخته
ميانه يكي خوب كشتي عروس
بر آراسته همجو جشم خروس
بيمبر بدو اندرون با على
همه أهل بيت نبي ووصى
اكر خلد خواهي بديكر سراى
بنزد نبي ووصي كير جاى
كرت زين بد آيد كناه منست
جنين دان واين راه راه منست

وكان السلطان محمود رجلا متعصبا فعملت فيه هذه السعاية وأصغى إليها، فأرسل إلى الفردوسي عشرين ألف درهم. فاغتم جدا وذهب إلى الحمام ثم خرج وشرب فقاعا، وقسّم هذه الفضة بين الحمامي والفقاعي. وكان يعلم سطوة محمود ففارق غزنة بليل، ونزل بهراة في دكان إسماعيل الورّاق والد الأزرقي -الشاعر- وتوارى في داره ستة أشهر حتى بلغ طلاب السلطان طوسا وعادوا.

فلما أمن الفردوسي توجه من هراة إلى طوس، وحمل الشاهنامة وسار إلى طبرستان إلى الأصبهبذشهريار(٣١) الذي كان ملك طبرستان، من آل باوند وهي أسرة عظيمة يتصل نسبها بيزدجرد بن شهريار فكتب في الديباجة مائة بيت في هجاء محمود. وقرأها على شهريار وقال: «سأحوّل هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك. فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم». فتلطف شهريار وأكرمه وقال: «يا أستاذ إن محمودا قد حُمل على هذا، ولم يُعرْض عليه كتابك كما ينبغي وسُعي بك. ثم أنت رجل شيعي. وكل من تولى آل النبي لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم له أنفسهم. ومحمود ملكي. فدع الشاهنامة باسمه، وأعطني الهجاء لأغسله وأعطيك شيئا يسيرا. سيدعوك محمود ويسترضيك. ولا يضيع جهد كتاب مثل هذا». وفي اليوم الثاني أرسل إليه مائة ألف درهم وقال: اشتريت كل بيت بألف درهم، فأعطني مائة البيت هذه، وارض عن محمود، فأرسل الفردوسي الأبيات فأمر شهريار بغسلها، وغسل الفردوسي مسودتها أيضًا. وضاع الهجاء وبقيت منه هذه الأبيات الستة.

«لقد قالوا طاعنين: إن هذا المنطيق شابَ على حب النبي وعلي

برين زادم وهم برين بكذرم

يقين دان كه خاك بي حيذرم

ولئن حكيتُ لهم حبي لأحمين مائة مثل محمود .

إن ابن الأمة لا يرجى خيره ولو كان أبوه ملكا

حتّام أطيل الكلام في هذا، وهو كالبحر لا أعرف له قرارا؟

لم يكن للملك قدرة على الخير، وإلا لرفعني على العرش

ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظماء»[1].

والحق أن شهريار قدم إلى محمود يدا عظيمة وقد عرف له محمود حقه.

وقد سمعت سنة ٥١٤[2] في نيسابور من الأمير المعزي أنه سمع من الأمير عبد الرازق بطوس أن محمودا كان في الهند مرة، وبينا هو عائد منها إلى غزنة عرض له

---

(١) مرا غمز كردند كان بر سخن
بمهر نبي وعلي شد كهن
اكر مهر شان من حكايت كنم
جو محمود را صد حمايت كنم
برستار زاده نيايد بكار
وكر جند باشد بدر شهريار
أزين در سخن جند رانم همى
جو دريا كرانه ندانم همى
به نيكي نبد شاه را دستكاه
وكرنه مرا بر نشاندي بكاه
جو اندر نبارش بزركي نبود
ندانت نام بزركان شنود

(٢) ١١٢٠-١١٢١.

ثائر في قلعة حصينة. وكان منزل محمود في اليوم الثاني عند باب هذه القلعة. فأرسل إليه رسولا أن ائت غدا، وقدم الطاعة، واخدم حضرتنا، والبس التشريف، وارجع. فلما كان الغد ركب محمود. وبينما الرئيس الكبير[١] يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان.

فقال السلطان للرئيس الكبير: ماذا يكون الجواب؟ فأنشد الرئيس بيت الفردوسي هذا:

إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجزر والميدان وأفرا سياب[٢]

قال محمود: لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه؟ قال: للمسكين أبي القاسم الفردوسي الذي احتمل العناء خمسا وعشرين سنة وأتم هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة. قال محمود: أحسنتَ بما ذكرتني، فقد آسفني أن يُحرم عطائي هذا الرجل الحر. ذكّرني في غزنة لأرسل إليه شيئا. فلما جاء الرئيس غزنة ذكّر محمودا. فقال السلطان: مر لأبي القاسم الفردوسي بستين ألف دينار، يعطاها نيلجا، وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس، ويعتذر إليه. ومضت سنون والرئيس في شغل بهذا. ثم أنجز الأمر وحمل الإبل. ووصل النيلج سالما إلى طبران. وبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسي تخرج من باب رزان. وكان في ذلك الوقت في طبرستان واعظ متعصب فقال: أنا لا أجيز حمل جنازة الفردوسي إلى قرافة المسلمين فإنه كان رافضيا، وأطال الناس التحدث إلى هذا العالم ولكن حديثهم لم يجد معه شيئا. وكان للفردوسي حديقة عندَ هذه البوابة فدفنوه بها، وهو فيها اليوم. وقد

---

(١) لقب الشيخ الأجل شمس الكفاة أحمد بن الحسن الميمندي وزير السلطان محمود.

(٢) اكر جز بكام من آيد جواب
من وكرز وميدان وافراسياب

زرت تلك المقبرة سنة ٥١٠[١].

ويقولون: إن الفردوسي خَلّف بنتا عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت وقالت: لا حاجة بي إليها. فكتب صاحب البريد إلى السلطان وعُرض الأمر عليه فأمر بأن يخرج ذلك العالم من طبران لما بدا منه من فضول، وأن يطرد من بيته وأن يعطى المال إلى الشيخ أبي بكر بن إسحاق الكرامي[٣٢] ليعمر به رباط جاهه في حدود طوس، على طريق مرو ونيسابور. فلما بلغ الأمر طوسا امتثلوه. وبناء رباط جاهه من هذا المال.

الحكاية العاشرة

لما كنت في خدمة السلطان ملك الجبال[٣٣] نور الله مضجعه ورفع في الجنان موضعه، وكان عظيم الثقة بي وكان يبدي همة عالية في رعايتي، كان من بين من وفد على الحضرة يوم عيد الفطر من عظماء وأبناء مدينة بلخ عمرها الله، الأمير العميد صفي الدين أبو بكر محمد بن الحسين الروانشاهى، وهو شاب فاضل مفضل وكاتب مجيد ومستوف صالح وله من الأدب وثمراته نصيب، وهو محبب إلى القلوب، تمدحه الألسن. ولم أكن في هذه الأثناء ماثلا بالخدمة.

وقد اتفق أن قال الملك في هذا المجلس: نادوا النظامي. فقال الأمير العميد صفي الدين: «هل النظامي هنا؟» فقيل له: «نعم». وقد حسب أنه النظامي المنيري، فقال له: نعم إنه شاعر مجيد ورجل مشهور. فلما جاء الفراش وناداني تنعلت ودخلت ثم أديت الخدمة وجلست في مكاني، فلما دارت الكئوس مرات قال الأمير

---

(١) ١١١٦-١١١٧.

العميد: إن نظامي لم يجئ. فقال ملك الجبال: جاء، ها هو جالس هناك. فقال الأمير العميد: لم أقصد هذا النظامي إنه رجل آخر وما هذا فأنا لا أعرفه. وحينئذ رأيت الملك وقد تغير والتفت إلي في الحال وقال: هناك نظامي غيرك؟ فقلت: نعم يا مولاي، يوجد نظاميان أحدهما السمرقندي ويسمونه نظامي المنيري والآخر النيسابوري ويسمونه نظامي الأثيري، وأما أنا فيسمونني نظامي العروضي. فقال: أأنت الأفضل أم هما؟

وقد أدرك الأمير العميد أنه أساء التعبير ورأى الملك متغيرا فقال: أيها الملك إن هذين النظاميين عربيدان وهما يعكران صفو المجالس بعربدتهما فيفسدانها. فقال الملك متلطفا: «انتظر حتى ترى هذا وقد شرب خمسة كئوس من الخمر المثلثة وأفسد المجلس. ولكن أي هؤلاء الثلاثة أشعر؟». فقال الأمير العميد: لقد رأيت ذينك الاثنين وأعرفهما حق المعرفة ولكن لم أر هذا ولا سمعت شعره فلو قال في هذا المعنى الذي ذكرته بيتين فأرى طبعه وأسمع شعره فإني أحكم أي هؤلاء الثلاثة أفضل؟

فالتفت الملك إلي وقال: هيا يا نظامي ولا تخجلنا، وأنشد ما طلب الأمير العميد. وكنت أثناء خدمتي للملك فياض الطبع وهاج الخاطر، وكنت من إكرامه وإنعامه علي أنشد الشعر بالبديهة، فأمسكت القلم وقلت هذه الأبيات الخمسة ولما تدر الكئوس مرتين:

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوي الدنيا باسمنا

أنا في ورساد[٣٤] أمام عرش ملكي والآخران في مرو أمام السلطان

والحقيقة أن كلا منا مفخرة خراسان اليوم

ومع أنهما يقولان شعرا رقيقا كالروح، ومع أنهما يعرفان فن القول كالحكمة

فأنا الشراب إذا تمكنت منهما نزلا عن صناعتهما[١].

فلما أنشدت هذه الأبيات تقدم الأمير العميد صفي الدين بالخدمة ثم قال: أيها الملك دع النظاميين الآخرين فإني لم أعهد في أحد من شعراء ما وراء النهر وخراسان والعراق هذا الطبع الذي يمكنه من ارتجال مثل هذه الأبيات الخمسة وخاصة بهذه المتانة والجزالة والعذوبة، فإنها مقرونة بعذب الألفاظ ومشحونة بالمعاني الجديدة، فلتسعد يا نظامي فليس لك على وجه البسيطة نظير. إن له يا مولاي طبعا لطيفا وخاطرا قويا وفضلا تاما. وإن إقبال الملك وهمته، رفعهما الله، قد زاداه فصيراه نادرة زمانه، وسوف يتقدم فإنه شاب والمستقبل له.

فتهلل وجه الملك العظيم وظهرت بشاشة طبعه وأثنى علي فقال: لقد وهبتك (خمس)[٢] منجم رصاص ورساد من هذا العيد حتى عيد الأضحى فأرسل عاملا.

---

(١) در جهان سه نظاميئيم أي شاه
كه جهاني ز ما بافغانند
من بورساد بش تخت شهم
وآن دو در مرو بش سلطا نند
بحقيقت كه در سخن امروز
هر يكي مفخر خراسانند
كرجه همجون روان سخن كويند
ورجه همجون خرد سخن دانند
من شرايم كه شان جو دريابم
هر دو از كار خود فرو مانند

(٢) زدنا هذه الكلمة «خمس» هنا حتى يتسق النص. ولعل النساخ نسوها. أما القزويني فقد ذهب في حواشيه ص١٩٢ إلى أن المقصود من الجملة «درمدت هفتا رزو دوازده هزار من سر از آن خمس بدبن

ففعلت وبعثت إسحاق اليهودي وكان ذلك في تمام الصيف وهو موسم العمل وفيه يكثر إذابة المعدن حتى إنه جمع في سبعين يوما اثني عشر ألف منّ من ذلك الخمس[1] الذي مُنحت. وارتفع تقدير الملك لي ألف مرة. نوّر الله تبارك وتعالى قبره العزيز بشمع رضاه وفرّح روحه الشريف بجمع الغَنَاء بمنه وكرمه.

دعا كوي رسيد» غير مفهوم، وقال: إما أن تقرأ «در إزاء خمس» باعتبار النظامي من آل النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مستحق للخمس. وإما أن تقرأ «بدون خمس» أي بعد إخراج الخمس نتج اثنا عشر ألف من. وربما كان المقصود أن السلطان وهبه خمس إنتاج المنجم، ولذا زدنا كلمة الخمسُ ووضعناها بين قوسين.

(١) زدنا هذه الكلمة «خمس» هنا حتى يتسق النص. ولعل النساخ نسوها. أما القزويني فقد ذهب في حواشيه ص١٩٢ إلى أن المقصود من الجُملة «درمدت هفتا رزو دوازده هزار من سر از آن خمس بدبن دعا كوي رسيد» غير مفهوم، وقال إما أن تقرأ «در إزاء خمس» باعتبار النظامي من آل النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مستحق للخمس. وإما أن تقرأ «بدون خمس» أي بعد إخراج الخمس نتج اثنا عشر ألف من. وربما كان المقصود أن السلطان وهبه خمس إنتاج المنجم، ولذا زدنا كلمة الخمس ووضعناها بين قوسين.

المقالة الثالثة

في علم النجوم

يقول أبو الريحان البيروني[١] في الباب الأول من كتاب «التفهيم في صناعة التنجيم»[٢]: «لا يسمى الرجل منجما ما لم يُحط بأربعة علوم، الأول الهندسة والثاني الحساب والثالث الهيأة والرابع الأحكام».

أما الهندسة فهي صناعة يعرف بها أصول أوضاع الخطوط وأشكال السطوح والمجسمات والنسبة الكلية بين المعايير وما يقدر بها ونسبة هذه إلى الأوضاع والأشكال. وقد اشتمل على أصول هذا العلم كتاب «أوقليدس النجار» الذي نقحه ثابت بن قرّة[١].

والحساب صناعة يعرف بها أحوال أنواع الأعداد وخصائص كل منها بذاته، ونسبة الأعداد إلى بعضها وتوالدها، ثم فروع الحساب من تنصيف وتضعيف وضرب وقسمة وجمع وتفريق وجبر ومقابلة. وقد اشتمل على أصوله كتاب «أرثماطيقي» وعلى فروعه «تكملة أبي منصور البغدادي»[٣] أو «صدباب»[٤] (مائة باب) للسجزي:

والهيأة علم يعرف به أحوال أجزاء العالمين العلوي والسفلي وأشكالها وأوضاعها، ونسبة كل منهما إلى الآخر، وما بينهما من المقادير والأبعاد، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك، وتعديل الكرات وقطع الدوائر التي تتم بها هذه

---

(١) ولد سنة ٢٢١/ ٨٣٦ وتوفي سنة ٢٨٨/ ٩٠١.

الحركات. وقد اشتمل على هذا العلم كتاب «المجسطي»، وأحسن تفاسيره وشروحه «تفسير النيريزي»[٥] و«مجسطي الشفا»[١]، وأما فروع هذا العلم فهي علم الزيجات وعلم التقاويم.

والأحكام علم من فروع العلم الطبيعي وأساسه التخمين. والمقصود به الاستدلال من أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وبقياس الدَرَج والبروج، على مجرى الحوادث التي تفيض عن حركاتها، من أحوال أوار العالم والملك والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل والتسايير والاختيارات والمسائل. ويشتمل عليه، حسب ما ذكرنا، تصانيف أبي معشر البلخي[٦]، وأحمد بن عبد الجليل السجزى[٧]، وأبي الريحان البيروني، وكوشيار الجيلي[٨].

وإذًا ينبغي أن يكون المنجم طيب النفس، زكي الخلْق، رضي الخُلُق. كما أن العته والجنون والكهانة من شرائط هذا العلم، ومن لوازم هذه الصناعة. وينبغي أن يكون طالع المنجم الذي يريد أن ينبئ بالأحكام في سهم الغيب، أو في مكان ملائم منه. ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعودًا، وكان مكانه محمودا، ووقع ما يقول قريبا من الصواب. ومن شرائط المنجم أن يذكر «مجمل أصول كوشيار»[٩]، وأن يداوم قراءة «كار مهتر»[١٠]، وأن ينظر في «قانون المسعودي»[١١] و«جامع شاهى» حتى تبقى معلوماته وتصوراته حاضرة.

الحكاية الأولى

كان يعقوب بن إسحاق الكندي[١٢] يهوديا، ولكنه كان فيلسوف زمانه، وحكيم

---

(١)أي كتاب الشفا لابن سينا.

عصره وكان مقربا عند المأمون. وقد دخل عليه يوما فاتخذ لنفسه مجلسا أعلى من مجلس أحد أئمة الإسلام، فقال هذا: «إنك رجل ذمي فكيف تتخذ مكانا أعلى من مكان أئمة الإسلام». فأجاب يعقوب: «لأني أعلم ما تعلم، وأنت تجهل ما أعلم». وكان هذا الإمام يعرف أن ليعقوب علما بالنجوم، ويجهل مدى علمه بغيرها فقال: «سأكتب شيئا على قصاصة من الورق فإن خبّرت به سلمتُ بما قلت». ثم تراهنا على أن يقدم الإمام رداء. وأن يقدم يعقوب بغلة بعدتها تقوّم بألف دينار. وكانت واقفة على باب القصر. وطلب الإمام دواة وورقة فكتب على جانب منها، ثم وضعها تحت بساط الخليفة وقال: «أحدس». فطلب يعقوب بن إسحاق لوحا، ثم نهض وأخذ الارتفاع وأعد الطالع، ثم رسم الزائجة على اللوح وقوّم الكواكب وثبتها في البروج، ثم استكمل شرائط الخبي والضمير[1] وقال: «يا أمير المؤمنين قد كُتب على هذه الورقة شيء كان نباتا فصار حيوانا». فمد المأمون يده تحت البساط وأمسك الورقة فأخرجها، وكان الإمام قد كتب عليها: «عصا موسى». فتعجب المأمون تعجبا عظيما كما دهش الإمام، فأخذ يعقوب الرداء فشقه نصفين أمام المأمون. وقال: «سأتخذ منه جوربين».

ذاعت هذه القصة في بغداد، ومنها سرت فانتشرت في العراق وخراسان، فأخذ فقيه من فقهاء بلخ، وكان فيه تعصب العلماء، سكينا فخبأها في كتاب للنجوم، كي يذهب إلى بغداد ويحضر درس يعقوب، ويبدأ تعلم النجوم، ثم ينتهز الفرصة فيغتاله. وسافر بهذا العزم من بلد إلى بلد حتى بلغ بغداد، فذهب إلى الحمام ثم خرج

(١)شرح البيروني هذين الاصطلاحين في كتابه «التفهيم..» فقال: الخبْي هو ما أخفي في قبضة اليد. والضمير ما أضمره الرجل وأدركه المنجم بالسؤال. وكثيرا ما يخطئ المنجم في الحدس فيها، والخطأ فيها أكثر من الصواب (الورقة ١٥٧ب من نسخة المتحف البريطاني. حواشي القزويني ص٢٠٦-٢٠٧).

منه لابسا ثوبا جديدا، ووضع الكتاب في كمه، وتوجه إلى بيت يعقوب. فلما بلغ الباب، وجد خيلا كثيرة عليها عدد من الذهب، منها ما هو لبني هاشم وما هو لعظماء القوم وأعيان بغداد. فتقدم ودخل ومضى في حلقة الدرس نحو يعقوب فأثنى ثم قال: «أريد أن أقرأ شيئا في علم النجوم يا مولانا». فقال يعقوب: «بل جئت من المشرق لقتلي لا لقراءة النجوم، ولكنك ستندم على هذا. وستقرأ النجوم وستبلغ الكمال في هذا العلم وتكون من كبار المنجمين في أمة محمد صلى الله عليه وسلم». فتعجب جميع العظماء الحاضرين من هذا الكلام، واعترف أبو معشر، وأخرج السكين من الكتاب فحطمها ورمى بها، ثم ثنى ركبتيه، وأكب على التعلم خمسة عشر عاما حتى بلغ في علم النجوم ما بلغ.

الحكاية الثانية

يحكى أن يمين الدولة السلطان محمود بن ناصر الدين[1] كان جالسا على سطح جوسق ذي أربعة أبواب في حديقة هزار درخت أو (ألف شجرة) بمدينة غزنين، فالتفت إلى أبي الريحان البيروني وقال: «أخبرني من أي هذه الأبواب الأربعة سأخرج؟ قل واكتب اختيارك على ورقة ثم ضع الورقة تحت بساطي». وكانت هذه الأبواب كلها تؤدي إلى الطريق؛ فطلب أبو الريحان الاسطرلاب وأخذ الارتفاع وأعد الطالع وتفكر ساعة ثم كتب على الورقة ووضعها تحت البساط. وقال محمود «أحَكمتَ». قال: نعم. فأمر محمود بإحضار عامل ومعه فأس ومساحة لفتح باب خامس في الجدار الشرقي ثم خرج من هذا الباب وأمر بإحضار الورقة فإذا أبو الريحان قد كتب عليها «إن الخروج لا يكون من أحد هذه الأبواب الأربعة بل

(١) محمود الغزنوي الذي حكم من ٣٨٨/ ٩٩٨-٤٢١/ ١٠٣٠.

سيفتح باب في الجدار الشرقي ومنه يكون الخروج».

فلما قرأ السلطان محمود هذا الكلام غضب، وأمر بإلقاء أبي الريحان في ساحة القصر، فألقوه، ولكنه وقع على شبكة معلقة في الطابق الأوسط فانشقت وهوي البيروني في رفق إلى الأرض فلم يصب جسمه برض. وقال السلطان: أحضروه فصعدوا به إليه فقال له: «يا أبا الريحان إنك لم تحط علمًا بما جرى لك». فقال: «بل كنت أعلم به يا مولاي» قال: فما دليلك؟ فنادى غلامه وأخذ منه التقويم فاستخرج منه تحويله فكان مكتوبا في أحكام ذلك اليوم «إنه سيلقى بي من مكان عال ولكني أبلغ الأرض بسلام وأنهض معافى». فلم يرق هذا الكلام لمحمود أيضًا وازداد غضبه وقال: احملوه إلى القلعة واحبسوه. فحبسوه في قلعة غزنين فلبث فيها ستة أشهر.

الحكاية الثالثة

قالوا: ولم يكن أحد يجرؤ على ذكر أبي الريحان عند السلطان محمود طوال هذه الأشهر الستة، وكان قد عين لخدمته أحد غلمانه. فكان يقوم بقضاء ما يحتاج إليه، يخرج ثم يعود. وبينما الغلام يمر يوما بحديقة غزنين إذا بعرّاف يناديه: أرى في طالعك كثيرا مما يقال، هات حلوانك لأحدثك عنه. فأعطاه الغلام درهمين فقال له العراف: «إن أحد أعزائك في ضيق وسيخلص منه في مدى ثلاثة أيام، فيلبس الخلعة والتشريف ويعود عزيزا مكرما» فسارع الغلام إلى القلعة وحدث سيده مبشرا بما سمع. فضحك أبو الريحان وقال: «ألا تعلم أيها الأبله أنه لا يجوز الوقوف بمثل هذه الأماكن وأنك قد أضعت الدرهمين سدى».

قيل: وكان الوزير الكبير أحمد بن حسن الميمندي طوال هذه الأشهر الستة يترقب الفرصة ليتحدث عن أبي الريحان، ثم رأى السلطان معتدل المزاج في المصطاد فانتهز الفرصة وأخذ ينتقل من حديث إلى حديث حتى انتقل إلى علم النجوم فقال: «مسكين أبو الريحان، فقد صدقت نبوءته في هذين الحكمين ولكنه لقي القيد والسجن بدلا من الخلعة والتشريف» فقال محمود: ليعلم الوزير أني أعرف هذا، ويقال: إنه ليس لهذا الرجل نظير غير ابن سينا، ولكن حكميه كانا على خلاف رأيي الملوك كالأطفال الصغار، ينبغي أن يكون الكلام وفق رأيهم ليكون للمتحدث نصيب منهم وكان من الخير له لو أخطأ ذلك اليوم في أحد حكميه، مُرْغدًا بإطلاق سراحه، وبأن يعطى حصانا وعدة من ذهب وجبة ملكية وعمامة من القصب وألف دينار وغلاما وجارية.

وقد أطلق سراح أبي الريحان في اليوم الذي ذكره العراف وأكرم على النحو الذي وصف واعتذر له السلطان قائلا: «يا أبا الريحان إذا أردت أن تكون سعيدا عندي فاجعل قولك وفق رأيي لا وفق سلطان علمك». فسار أبو الريحان على هذا. وهو أحد شروط خدمة الملك، تنبغي موافقته في الحق والباطل وجعل التقارير وفق هواه.

ولما عاد أبو الريحان إلى بيته وجاء أهل الفضل لتهنئته حدثهم حديث العراف فتعجبوا وأرسلوا رسولا يدعوه فإذا هو شديد الجهل، لا يعرف شيئا قط. فسأله أبو الريحان: «أعندك طالع المولد». فقال: عندي. ثم أحضر هذا الطالع فنظر أبو الريحان فوجد سهم الغيب على حاق درجته، فكان كل ما يقوله، ولو خبط عشواء، مقاربا للصواب.

الحكاية الرابعة

كان لديّ خادم ولدت في الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة[١] والشمس والقمر في برج واحد وليس بينهما بعد قط، ولهذا وقع سهما الغيب والسعادة فوق درجة طالعها. وقد لقنتها علم النجوم حينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، فبلغ إتقانها له أنها كانت تجيب عن المشكل من مسائله، كما كانت أحكامها تقع قريبة من الصواب جدا، وكانت المخدرات يذهبن إليها ويسألنها فكان أكثر ما تقول يوافق القضاء.

وجاءتها يوما عجوز فقالت: إن أحد أبنائي سافر منذ أربع سنوات وليس لدي أي خبر عنه، لا عن حياته ولا عن مماته، فانظري أحي هو أم ميت، وحدثيني أين هو وكيف حاله. فقامت المنجمة وأخذت الارتفاع وصوبت درجة الطالع ورسمت الزايجة وثبتت الكواكب وكان أول ما قالت: عاد ولدك. فغضبت العجوز وقالت: يا بنيتي إني لا أطمع في عودته، حسبك أن تحدثيني أحي هو أم ميت. فقالت: أقول: إن ولدك قد عاد فاذهبي فإن لم تجديه قد رجع فعودي لأحدثك كيف هو. فقفلت العجوز راجعة إلى البيت فوجدت ابنها قد عاد ومتاعه ينزل من ظهر الحمار، فاحتضنته ثم أخذت مقنعتين إلى المنجمة وقالت: صدقت فقد عاد ولدي. وأهدتها المقنعتين داعية لها.

ولما رجعتُ إلى الدار ذلك المساء وسمعت هذا الخبر سألتها: بأي دليل نبأت ومن أي برد حكمت. قالت: «لم أبلغ هذا، ولكني حينما أتممت صورة الطالع دخلت

---

(١) أول يوليو ١١١٧.

ذبابة فوقعت على حافته فأدركت في قرارة نفسي أن هذا الولد قد عاد. ولما قلت هذا وانصرفت أأمه تتبين الخبر كانت عودته قد تحققت لدي حتى لكأني أراه ينزل المتاع عن ظهر الحمار» فتحقق لدي أن هذا كله عمل سهم الغيب على درجة الطالع وليس صدق حدسها إلا منه.

الحكاية الخامسة

كان محمود الداودي بن أبي القاسم الداودي معتوها جدا، بل كان مجنونا، ولم يكن له من علم النجوم حظ كبير، ولكنه كان ملمًا بأعمالها، وكان في تقويمه أشكال يستدل منها بنعم أو بلا. وكان الداودي في حاشية الأمير دادا أبي بكر بن مسعود بمدينة بنج ديه، وكانت أحكامه قريبة من الصواب. وقد بلغ من الجنون أن مولاي ملك الجبال[١٣] أهدى الأمير داد كلبين من الكلاب الغورية، كانا في غاية الضخامة والشراسة فصارعهما الداودي مختارا وخرج من صراعهما سالما. وكنت بعد هذا الحادث بسنوات جالسا مع جماعة من أهل الفضل عند دكان المقري الحداد الطبيب في سوق العطارين بمدينة هراة، ودارت ألوان من الحديث شتى، فجرى على لسان أحد الفضلاء: ما أعظم ابن سينا. فرأيت الداودي وقد تميز غيظًا وبرزت أوداجه وانتفخت وبدت على وجهه أمارات الغضب وقال: يا فلان ماذا كان ابن سينا؟ أنا أكبر منه ألف مرة، إنه لم يحارب قطا ولقد حاربت أمام الأمير داد كلبين غوريين.

فعرفت في ذلك اليوم أنه مجنونٌ. ومع جنونه هذا رأيت، سنة ثمان وخمسمائة[١] حين نزل السلطان سنجر في صحراء خوزان[١٤] واتجه نحو ما وراء النهر لمحاربة

---

(١) ١١١٤-١١١٥.

محمد خان[١٥]، أن الأمير داد أعد مأدبة رائعة للسلطان، وفي اليوم الثالث توجه إلى النهر وركب في سفينة وأخذ يلهو بصيد السمك وقد دعا الداودي لمصاحبته ليحدثه هذا النوع من أحاديث الجنون فيضحك منه، وكان الداودي يتطاول على الأمير جهارا. وقال له الأمير مرة: قل لي كم مَنّا تزن السمكة التي أصيدها هذه المرة؟ فقال الداودي: ارفع الشص، فرفعه الأمير. فأخذ الارتفاع وسكت لحظة ثم قال: ألقه الآن. فألقاه الأمير فقال الداودي: أرى أنك تصيد الآن سمكة وزنها خمسة أمنان. فقال الأمير: كيف يكون السمك الذي يزن خمسة أمنان في هذا النهر يا لعين. فقال الداودي: صه ماذا تدري! فسكت الأمير داد خشية أن يشتمه إن هو تمادى في الكلام. ثم إن الشص ثقل بعد لحظة دلالة على أن صيدا وقع به، فجره الأمير فإذا سمكة كبيرة قد علقت به. فلما انتُزعت وُجدت تزن خمسة أمنان[١]. فتعجب الحاضرون وتعجب الأمير. والحق أن الأمر كان عجيبا. وقال الأمير للداودي: ماذا تطلب؟ فحياه وقال: يا ملك الأرض أطلب جوشنا ودرعا ورمحا لأقاتل الأباوردي. وكان الأباوردي هذا ضابطا ملازما في حاشية الأمير داد، وكان الداودي يبغضه لأنه لُقب شجاع الملك بينما لقب الداودي بشجاع الحكماء فكان حانقا لتلقيب الأباوردي بشجاع. وكان الأمير داد يعرف هذا فدأب يوقع بينهما. وكان الأباوردي، هذا الرجل المسلم، يلقى عناء من الداودي.

وفي الجملة لم يكن هناك شك في جنون الداودي. وقد أوردت هذا الفصل ليعلم الملك أن الجنون من شروط هذا الباب.

---

(١) في النص الفارسي المنشور سبعة أمنان، وفي النسخة المرموز لها بحرف (ل) خمسة أمنان وهو المتفق مع سياق الحكاية.

الحكاية السادسة

كان الحكيم الموصلي من طبقة المنجمين في نيسابور. وكان في حاشية الوزير الكبير نظام الملك الطوسي، وكان هذا يستشيره في مهمات الأمور ويسأله الرأي والتدبير. فلما بلغ الموصلي من الكبر عتيا وفترت منه القوى ودب الضعف في جسده وأصبح لا يحتمل مشقة السفر الطويل طلب من الوزير أن يعفيه من عمله، ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه كل عام تقويما وتحويلا. وكان نظام الملك قد تقدمت به السن ولم يبق من عمره إلا القليل فقال له: سق التسيير ثم انظر متى تفيض روحي ويحل القضاء الواقع والحكم الذي لا مفر منه.

فقال الحكيم الموصلي: بعد وفاتي بستة أشهر. فزاد الوزير في برّه وترفيهه. وسار الموصلي إلى نيسابور وأقام منعما يرسل التقويم والتحويل كل عام.

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتي من نيسابور، أول ما يسأل، كيف حال الموصلي؟ فإذا وجده سليما معافى اعتدل طبعه وطاب قلبه. إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة[1] فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلي، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال: ليبقى صدر الإسلام وارثا للأعمار لقد مات الموصلي. فقال الوزير: متى؟ قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول. فتفطر قلب الوزير الكبير وأفاق فأعاد النظر في أعماله، وفي سجل الأوقاف ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضي عنه من عبيده، ووفى دينه، وأسعد كل من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه. وبقي ينتظر الموت، حتى كان رمضان

---

(١) ١٠٩٢-٣.

فاستشهد على يد تلك الجماعة[١] في بغداد. أنار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه[١٦].

حينما يتقن رصد طالع المولود ورب البيت والهيلاج ويكون المنجم حاذقًا فاضلا فإن حكمه يصيب والله أعلم.

الحكاية السابعة

في سنة ست وخمسمائة[٢]، في مدين بلخ في شارع النخاسين (وده فروشان) نزل في سراي الأمير أبي سعيد جرة الإمامان عمر الخيام[١٧] ومظفر الأسفزاري[١٨] وقد كنت متصلا بهذا الأمير فسمعت أثناء مجلس السمر حجة الحق عمر يقول: سيكون قبري في موضع تؤرجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع. فبدا لي أن هذا القول مستحيل، وكنت أعرف أن مثله لا يقول جزافا.

فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسمائة[٣]، وقد خلت أربع سنوات على إيداع هذا الرجل العظيم الثرى[١٩] وصارت الدنيا يتيمة من بعده، وكان له على حق الأستاذية، ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة، وقد استصحبت رجلا يدلني على قبره، فأخرجني إلى مقبرة الحيرة[٢٠]، وسرت يسارًا فرأيت قبره أسفل جدار بستان قد أطلت منه أشار الكمثرى والمشمش وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه. فجالت بخاطري تلك الحكاية التي كنت سمعتها منه في بلخ فغلبني البكاء، إذ لم أر له نظيرا في الدنيا وأقطار الربع المسكون. أسكنه الله الجنات بمنه وكرمه.

---

(١) الصباحية أتباع حسن الصباح.

(٢) ١١١٢-١٣.

(٣) ١١٣٠-٣٦.

الحكاية الثامنة

ومع أني رأيت هذا الحكم من حجة الحق عمر لم أر له في أحكام النجوم اعتقادًا قط، ولا رأيت أو سمعت من العظماء أنه كان يعتقد بها.

في شتاء سنة ثمان وخمسمائة[١]، في مدين مرو أرسل السلطان رسولا إلى الوزير الكبير صدر الدين محمد بن المظفر[٢] رحمه الله قائلا: قل للإمام عمر يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد. وكان الإمام عمر في صحبة الوزير نازلا في قصره، فأرسل إليه رسولا ودعاه وقص عليه الأمر، فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتا حسنًا، ثم ذهب بنفسه فأركب السلطان حسب اختياره.

فلما ركب السلطان وسار في طريقه قليلا تجمعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب، وضحك الرَّكبْ، وهمّ السلطان بأن يعود فقال الإمام: ليطمئن قلب السلطان فإن المطر سينقطع لساعته ولن تنزل في هذه الأيام الخمسة قطرة منه. فسار السلطان وانقشعت السحب، ولم ينزل طل في هذه الأيام الخمسة، ولا رأى أحد سحابا.

فأحكام النجوم، مع أنها صناعة معروفة، لا يجوز الاعتماد عليها. كما أنه لا ينبغي للمنجم أن يمعن فيها، وعليه أن يحيل كل حكم يرى على القضاء.

---

(١) ١١١٤-١٥.

الحكاية التاسعة

وعلى الملك أن يختار حيثما توجه نديمه وخادمه. فإن كان مؤمنا قائما بالفرائض والسنة مخلصا له قرّبه وعززه واعتمد عليه، وإن كان على خلاف ذلك هجره وحفظ مجلسه من ظله فإن من لا يعتقد في دين الله عز وجل وفي شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون له اعتقاد في إنسان، ثم إنه يكون شؤما على نفسه وعلى مخدومه.

في أوائل عهد السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه قسيم أمير المؤمنين نوّر الله تربته عصى ملك العرب صدقة[٢٢] وخلع ربقة الطاعة من عنقه وتوجه من الحلة إلى بغداد ومعه خمسون ألف عربي، فأرسل أمير المؤمنين المستظهر بالله إلى إصفهان كتابا إثر كتاب ورسولا بعد رسول مستنجدا بالسلطان. وكان السلطان يسأل المنجمين الاختيار، فلا يهتدون إليه. فقد كان صاحب طالع السلطان راجعا. فقالوا: إنا لا نجد اختيارا يا مولانا، فقال: ابحثوا. وشدد عليهم وبرم بهم فولوا هاربين.

وكان هناك غزنوي يمتهن قراءة الفأل، وكان له دكان بطريق كنبد (القبة)، وكانت النسوة تجتمعن حوله فيكتب لهن تعاويذ الحب. ولم يكن الرجل واسع العلم. وقد مثل أمام السلطان، إذ كان يعرف أحد خدمه. فقال له: إني أعد الاختيار فاذهب وفقًا له فإن لم تظفر فاقطع رقبتي. فسر قلب السلطان وركب بناء على حكمه فورًا وأعطاه مائتي دينار نيسابوري. ثم سار فحارب صدقة وهزم جنده وأسره ثم قتله.

فلما عاد السلطان منصورًا مظفرًا إلى إصفهان أكرم قارئ الفأل وأولاه شرفا

عظيما وقربه منه.

ثم دعا المنجمين وقال لهم: إنكم لم تختاروا، وأعد هذا الغزنوي الاختيار، فذهبنا وقد أيدنا الله عز وجل، فلم فعلتم هذا، لعل صدقة قد أرسل لكم رشوة لئلا تعدوا اختيارًا. فخر المنجمون على التراب متضرعين وقالوا: إن هذا الاختيار لم يكن ليرضي منجما قط. وإذا يشاء السلطان فليكتب رسالة وليبعث بها إلى خراسان ليرى ماذا يقول الإمام عمر الخيام. فأدرك السلطان أن هؤلاء المساكين يقولون حقا، فدعا أحد ندمائه الأفاضل وقال له: عليك أن تشرب الخمر غدًا في بيتك، وأن تدعو المنجم الغزنوي وتسقيه وأن تقول له -وهو في شدة السكر: إن هذا الاختيار الذي أعددت لم يكن حسنا فإن المنجمين يعيبونه، فحدثني عن سره. ففعل النديم ما أُمر به، وسأل الغزنوي وهو سكران فقال: إني علمت أن الأمر لا يعدو واحدًا من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي.

وفي اليوم التالي حدث النديم السلطان بما سمع فأمر بطرد الكاهن الغزنوي. وقال: إن رجلا كهذا يرى في المسلمينْ هذا الرأي لرجل مشئوم. ثم نادى منجميه ووثق بهم. وقال: إني أبغضت هذا الكاهن فإنه لم يُصلّ قط، ومن لا يقوم بالشرع لا يعمل معنا.

الحكاية العاشرة

في شهور سنة سبع وأربعين وخمسمائة[٢٣](١). وقعت الحرب بين سلطان العالم

(١) ١١٥٢-٥٣.

سنجر بن ملكشاه ومولاي السلطان علاء الدنيا والدين[٢٤]، عند باب أوبة[٢٥]، وقد هزم جيش الغور وأسر مولاي سلطان المشرق خلد الله ملكه، كما وقع ابن مولاي ملك العالم العادل شمس الدولة والدين محمد بن مسعود[٢٦] أسيرا في يد الأمير القائد (أمير سباهسالار) يرَنْقُش هريوه[٢٧]، فاتفق على دفع خمسين ألف دينار فدية وعلى أن يذهب رسوله إلى القصر في باميان ليستعجل هذا المال، فإذا بلغ هراة أفرج عن الأمير، لأنه كان مطلق السراح من قِبل سلطان العالم سنجر، وقد أمر له بخلعة عند مغادرته هراة.

وقد قدمت في هذه الحال لأكون في خدمته، وقد بلغ منه الحزن يوما فسألني متى الخلاص ومتى تصل هذه الرسالة. فأخذت الارتفاع بهذا الاختيار، وأصعدت الطالع في ذلك اليوم، باذلا كل جهد؛ وقد بدأ مفتاح الفرج لهذه الشدة في اليوم الثالث فجئت إليه في اليوم التالي. وقلت: غدا عند صلاة الظهر يأتي الرسول. فأخذ هذا الأمير يفكر طول يومه حتى إذا ذهبت لخدمته في اليوم التالي قال لي: اليوم موعدنا. فقلت: نعم. وبقيت في حضرته حتى صلاة الظهر، فلما علا الأذان قال لي متضجرًا: أرأيت أن صلاة الظهر قد حلت، ولما يأت الخبر؟ وبينما الأمير في هذا إذا بقاصد يدخل مبشرًا بأن الحِمل قد أُحضر -الفداء- وهو خمسون ألف دينار وأغنام وأشياء أخرى، وكان صاحب الحمل عز الدين محمود حاجي كدخداي الأمير حسام الدولة والدين[٢٨]. وفي اليوم التالي لبس الأمير شمس الدولة والدين خلعة سلطان العالم -سنجر- وأصبح طليقًا فحث السير إلى مقر عزه أسرع ما يكون وكانت الأحوال كل يوم في سمو، أدام الله سموها.

كان في هذه الليالي يعطف علي ويقول: يا نظامي أتذكر أنك أعددت هذا الحكم في هراة، وقد صدق، وكنت أريد أن أملأ فمك ذهبا ولكنه لم يكن عندي هناك أما

هنا فهو عندي. ثم طلب الذهب فملأ فمي به مرتين، ثم قال: إن فمك لا يسع كثيرا فافتح كمك ففتحته فملأه ذهبا.

أدام الله بركته على هذه الدولة، وحفظ هذين الأميرين للملك المعظم الجليل[٢٩] بمنه وكرمه.

obeikandl.com